إدوارد سعيد حياته وسيرته وآثاره وإنتاجه

عبد السَّلام أحمد عابد*

إدوارد وديع سعيد[1] ناقد أدبيٌّ، ومفكِّر عالميٌّ، ومحاضر جامعيٌّ، ذاع صيته، وانتشرت كتبه ومؤلَّفاته، في أنحاء العالم، وشكَّلت مصدر إلهام للأدباء والمثقَّفين. وكان له حضوره الإعلاميُّ المؤثِّر، لدى كبريات وسائل الإعلام العالميَّة والعربيَّة.

يعتبر إدوارد رمزًا ثقافيًّا عالميًّا، ومدافعًا حقيقيًّا ومبدئيًّا عن عدالة القضايا العالميَّة الكبرى، ولا سيَّما القضيَّة الفلسطينيَّة. وقد سعى جاهدًا؛ لتطبيق أفكاره وقيمه الإنسانيَّة الرَّفيعة والنَّبيلة على أرض الواقع، أنَّى حلَّ أو عمل، مدرِّسًا وناقدًا وباحثًا.

وقد أوضحت الموسوعة العربيَّة العالميَّة، أنَّ الدُّكتور إدوارد سعيد: (أستاذ جامعيٌّ، ومفكِّر وناقد فلسطينيٌّ عربيٌّ أمريكيٌّ مشهور، على مستوى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة والعالم، وتلقَّى تعليمه الأوَّليُّ في القدس ومصر، ثمَّ عاش في الولايات المتَّحدة، منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره. وعمل أستاذًا للأدب الإنجليزيِّ والمقارن بجامعة كولومبيا في نيويورك.

وإضافة إلى كونه ناقدًا أدبيًّا مرموقًا، فإنَّ اهتماماته السِّياسيَّة والمعرفيَّة متعدِّدة وواسعة، تتمحور حول القضيَّة الفلسطينيَّة، والدِّفاع عن شرعيَّة الثَّقافة والهُويَّة الفلسطينيَّة، وعن عدالة هٰذه القضيَّة، وحقوق الشَّعب الفلسطينيِّ، كما تتمركز اهتماماته والموضوعات الَّتي يتناولها، على العلاقة بين القوَّة والهيمنة الثَّقافيَّة الغربيَّة، من ناحية، وتشكيل رؤية النَّاس للعالم وللقضايا من ناحية أخرى. ويوضِّح إدوارد سعيد هٰذه المسألة بأمثلة عديدة، وتفاصيل تاريخيَّة في مسألة الصُّهيونيَّة، وترعرعها في الغرب، ونظرة الغرب إلى العرب والإسلام والمسلمين، وثقافات العالم الأخرى. ويشرح

---

* باحث وكاتب – جنين – فلسطين.

[1] 1935م ـ أيلول 2003م.

سعيد كيف أنَّ الإعلام الغربيَّ والخبراء وصنَّاع السِّياسة الغربيَّة والإمبرياليَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، تتضافر كلُّها؛ لتحقيق مصالح غربيَّة غير عادلة في نهاية المطاف، وذلك عن طريق إيجاد خطاب غربيٍّ منحاز ثقافيًّا إلى الغرب ومصالحه).[1]

ميلاده وطفولته:

ولد إدوارد في مدينة القدس بفلسطين عام 1935م، ثمَّ غادر مع أسرته إلى مصر. وعن طفولته المبكِّرة، وخلفيَّته العائليَّة، وإقامته في القاهرة، يقول إدوارد سعيد في لقاء صحفيٍّ معه: (رغم ولادتي في القدس، فإنّي قضيت معظم سنواتي التَّكوينيَّة الأولى في القاهرة. لقد كنت نتاج المدارس الاستعماريَّة، الأمر الَّذي جعلني في حالة حرب شبه دائمة مع المدارس والأساتذة. والحقُّ أنَّني تلقَّيت تعليمًا جيِّدًا للغاية، ولٰكنِّي لم أتأثَّر بأيٍّ من الأساتذة، أو شخوص السُّلطة، الَّذين كنت أعتبرهم في الصف المقابل على الدَّوام. التَّأثيران الرَّئيسان في سنواتي الأولى كانا، أوَّلًا، أستاذي في الموسيقى أغناس تيغرمان، الَّذي درست على يديه البيانو. وكان الرَّجل يهوديًّا من أصل بولونيٍّ يعيش في مصر، وكان عازف بيانو مرموقًا وموسيقيًّا رائعًا، وفد إلى مصر في عام 1933م، وبقي فيها حتَّى توفِّي عشيَّة حرب 1967م. لقد ترك في نفسي أثرًا بالغًا، خصوصًا لجهة موقفي من الموسيقى).

ويضيف إدوارد: (والتَّأثير الثَّاني كان سياسيًّا، وهو الدُّكتور فريد حدَّاد طبيب العائلة. كان فلسطينيَّ الأصل، ولٰكنَّه مولود في مصر، وكان عضوًا في الحزب الشُّيوعيِّ، ومات في سجن (أبو زعبل) في أواخر الخمسينيَّات على يد الشُّرطة. ولقد كان بالفعل وسيطي إلى السِّياسة، وإلى يسار السِّياسة والمعارضة السِّياسيَّة).

---

[1]: الموسوعة العربيَّة العالميَّة 12، مؤسَّسة أعمال الموسوعة للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، المملكة العربيَّة السُّعوديَّة،1999م، ص 291. 292.

وعن عائلته الَّتي نشأ في كنفها يقول: "كانت مزيجًا عجيبًا من العناصر العربيَّة والمسيحيَّة والإنجليزيَّة؛ نظرًا لأنَّ والدي خدم في الجيش الأمريكيّ، خلال الحرب العالميَّة الأولى، واكتسب الجنسيَّة الأمريكيَّة، قبل أن يعود إلى فلسطين. كنَّا نعيش بطريقة غريبة للغاية؛ إذ إنَّ أسرتي كانت تعيش في ما يشبه الشَّرنقة، دون الكثير من الصِّلات بالعالم المحيط بنا.[1]

المؤثِّرات الفكريَّة المبكِّرة:

في طفولته كان إدوارد منعزلًا، ولم يكن لديه أصدقاء، ولٰكنَّ أسرته كانت تمتلك مكتبة منزليَّة كبيرة وذات تنوُّع مدهش، ولعلَّ الرِّواية كانت الأكثر أهميَّة في تأثيرها المبكِّر على شخصيَّته. حيث شاهد في السِّينما الرِّوايات المسلسلة، وقرأ الرِّوايات الكلاسيكيَّة مثل: ديكنز وسكوت والقصص الشَّعبيَّة الرخيصة. وقرأ روايات شكسبير، بمساعدة والدته الَّتي كان لها تأثير كبير على مساره الفكريّ.

واعتاد إدوارد على الاستماع للموسيقى، والعزف على البيانو، وهو في سنِّ الثَّالثة عشرة، ويؤكِّد بنفسه، أنَّه كان سابقًا لعمره، وامتلك ذاكرة موسيقيَّة رفيعة، حتَّى أنَّه كان قادرًا على حفظ وترداد ثلاثين أو أربعين أغنية.

ومن الفلاسفة الَّذين تأثَّر بهم سعيد: الإيطالي جيانباتيستا فيكو، وسورين ووليم بليك والكتَّاب الفرنسيُّون من أمثال: شارل بودليرو وجيرار دو نيرفال، وغوستاف فلوبير ومارسيل بروست، وجوزيف كونراد الأكثر تأثيرًا.

الدِّراسة في أمريكا:

قرَّرت أسرة إدوارد إرساله إلى أمريكا؛ لمواصلة تعليمه؛ بسبب تمتُّعه بالجنسيَّة الأمريكيَّة، وصعوبة المنهاج الإنجليزيّ. وفي العام 1951م انضمَّ لمدرسة داخليَّة في

[1] فصليَّة الكرمل عدد 78، مؤسَّسة الكرمل الثَّقافيَّة مركز خليل السَّكاكيني الثَّقافي، رام الله، شتاء 2004م،ص103.

ماساشوستس، وأمضى سنتين صعبتين هناك، كانتا الأكثر بؤسًا في حياته، على حدِّ تعبيره. ثمَّ تابع دراسته الجامعيَّة في جامعة برنستون، فجامعة هارفارد، بين العامين 1951 – 1963م، حيث حصل على الدُّكتوراه في الأدب المقارن. وعام 1966م أصدر كتابه الأوَّل (جوزيف كونراد ورواية السِّيرة الذَّاتيَّة)، وهو أطروحة الدُّكتوراه في جامعة هارفارد.

وخلال هٰذه المرحلة الجامعيَّة الممتدَّة على مدى اثني عشر عامًا في أمريكا، درس إدوارد الآداب الإنجليزيَّة والفرنسيَّة والإيطاليَّة، وآداب الإغريق والرُّومان، والمسرح، والفلسفة والموسيقى.[1]

أثناء تحضيره للدُّكتوراه في جامعة هارفارد، كان إدوارد يقرأ كميَّات كبيرة من الكتب، ولم يكن ملتزمًا بمنهج محدَّد، ومن الكتب الَّتي قرأها في هٰذه الفترة كتاب (التَّاريخ والوعي الطَّبقيُّ) لجورج لوكاش وكتاب (الرِّواية التَّاريخيَّة).[2]

واعتمد سعيد على ذاته، وهو يقرأ بنهم نصوص النَّظريَّة؛ لتخرجه من الدَّرب (اللَّا تاريخي أو اللَّا نظري) الَّذي كان يسير فيه. وما بين عامي 1959م و 1960 قرأ مؤلَّفات مارتن، وهايدغر وموريس ميرلو.

وبعد أن أنهى الدُّكتوراة، غادر إدوارد عام 1963م جامعة هارفارد، وجاء إلى جامعة كولومبيا، وزاد اهتمامه بالثَّقافة الفرنسيَّة، قراءة ودراسة، بالإضافة إلى تعرُّفه على الأدباء والمثقَّفين الفرنسيِّين شخصيًّا. وظلَّ هٰذا التَّأثُّر قائمًا، حتَّى مطلع السَّبعينيَّات من القرن العشرين. لقد خلص إدوارد سعيد إلى أنَّ منهجه يرفض أنظمة الآخرين، كما أنَّه أدرك أنَّ الفرنسيِّين (يبنون امبراطوريَّات، ويفتشون عن حواريِّين).[3]

---

[1] الكرمل. ص109.

[2] المرجع السَّابق ص 106.

[3] المرجع ذاته ص107

كان سعيد متواجدًا في عمَّان، عام 1969م، (وتعاطف مع حركة المقاومة الفلسطينيَّة، بعدها غادر إلى بيروت، وتزوَّج من سيِّدة لبنانيَّة، ثمَّ درس اللُّغة العربيَّة على يد أنيس فريحة، وقرأ الغزاليَّ وابن خلدون والفلسفة الأندلسيَّة، وطٰه حسين ونجيب محفوظ، قبل أن يشهد حرب 1973م، ويكتشف عيانيًّا أنَّ ما يجري على الأرض لم يكن يتوافق أبدًا مع ما يكتب في وسائل الإعلام الغربيَّة. وهٰكذا تبلورت ملامح انشقاق بارز جديد، هو التَّفكير في خطاب الاستشراق والصُّورة الَّتي ابتدعها الغرب عن الشَّرق، والعلاقات بين المعرفة والسُّلطة في ذٰلك كلِّه).[1]

كتبه المنشورة وإنتاجه الثَّقافيُّ في مراحله المختلفة

من مؤلَّفات إدوارد سعيد الكتب التَّالية: (جوزيف كونراد ورواية السِّيرة الذَّاتيَّة) 1966م، (بدايات: القصد والمنهج) 1975م، (الاستشراق) الَّذي طبع أوَّل مرَّة عام 1978م وترجم إلى العديد من اللُّغات، بما في ذٰلك العربيَّة، (الأدب والمجتمع) 1980م، و(العالم، النَّصُّ، والنَّاقد) 1980م، (الثَّقافة والإمبرياليَّة) 1993م، وكتبه عن القضيَّة الفلسطينيَّة هي: (مسألة فلسطين) عام 1979م، (بعد السَّماء الأخيرة) 1986م، و(لوم الضَّحيَّة: البحث الزَّائف ومسألة فلسطين) 1987م (تأمُّلات حول المنفى)، و(الآلهة الَّتي تفشل دائمًا)، و(تغطية الإسلام).[2]

يقع كتاب تأمُّلات حول المنفى، في ثلاثمئة وثلاث وثمانين صفحة من القطع الكبير، ويضم مقدِّمة التَّرجمة العربيَّة، ومدخلًا واثنتين وعشرين مقالة كتبها سعيد، خلال خمسة وثلاثين عامًا، أمضاها، في جامعة كولومبيا في نيويورك دارسًا ومدرِّسًا.

---

[1] الكرمل ص 10.

[2] الجيوسي، د. سلمى، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، الطَّبعة الأولى 1997، ص355.

تناول في كتابه مقالات عن قضيَّة فلسطين، ومصير الشَّعب الفلسطينيّ، والصِّراع الدَّائر للسَّيطرة عليها، وكتب عن الغربة وما تولِّده من أحاسيس حزينة، بالإضافة إلى مواضيع متنوِّعة عن النَّظريَّات الأدبيَّة، والسَّرد الفنِّيّ والصَّحفيّ، وفنّ العزف على البيانو، والأدب العربيّ. وهٰذه أبرز العناوين الَّتي وردت في الكتاب: النَّثر والنَّثر القصصيُّ العربيَّان بعد عام 1948م، رسائل مريرة من العالم الثَّالث، شعائر مصريَّة، مستقبل النَّقد، بعد محفوظ، القاهرة والإسكندريَّة، الهُويَّة والسُّلطة والحرِّيَّة، الحاكم والرَّحَّالة، القوميَّة وحقوق الإنسان والتَّأويل، التَّاريخ والأدب والجغرافيا... إلخ.[1]

كتاب (الآلهة الَّتي تفشل دائمًا) لإدوارد سعيد يقع في مئة وتسع وثلاثين صفحة، ويتألَّف من مقدِّمة وسبعة مقالات هي على التَّوالي: صور المثقَّف، ضبط الأمم والتَّقاليد في وضع حرج، المنفى الثَّقافيُّ، مبعدون ومهمَّشون، محترفون وهواة، قول الحقيقة للسُّلطة، الآلهة الَّتي تفشل دائمًا.

ويؤكِّد سعيد في كتابه، أنَّ على المثقَّف أن يكون ناقدًا بنَّاء للسُّلطة والمجتمع، وأن يبقى في حالة يقظة تامَّة، مع عدم الاستعداد لقبول الصِّيغ السَّهلة، أو الأفكار المبتذلة الجاهزة، أو التَّأكيدات المتملِّقة والمكيَّفة باستمرار، لما يقوله الأقوياء ويفعلونه، ويرى إدوارد أنَّ على المثقَّف أن لا يكتفي بالمعارضة السَّلبيَّة، بل أن يكون مستعدًّا لقول ذٰلك علانية، وعلى نحو نشط؛ لأنَّ واجبه أن يقدِّم أفكارًا ووجهات نظر، يطمح منطقيًّا إلى إنجاحها في المجتمع. والمثقَّف الَّذي يدَّعي الكتابة لذاته الخاصَّة فحسب، ولأجل المعرفة الخالصة، أو العلم المجرَّد، يجب عدم تصديقه).[2]

---

[1] سعيد، إدوارد، تأمُّلات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، الطَّبعة الأولى باللُّغة العربيَّة عام 2004م، ص 7ـ 8.

[2] سعيد، إدوارد، الآلهة الَّتي تفشل دائمًا، ترجمة حسام الدين خضور، التَّكوين للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، الطَّبعة الأولى باللُّغة العربيَّة عام 2003م ص 35، ص 127.

في مقدِّمته للطَّبعة العربيَّة الثَّانية، يرى كمال أبو ديب أنَّ إدوارد سعيد في كتابه الَّذي يحمل عنوان: (الاستشراق) (يستعيد الأسئلة الَّتي حاول طرحها بشكل مكثَّف لمناقشة مشكلات التَّجربة الإنسانيَّة: كيف يرى المرء الثَّقافات الأخرى؟ ما هي الثَّقافات الأخرى؟ هل مفهوم وجود ثقافة (أو عرق، أو دين، أو حضارة) مفهوم مفيد، أم أنَّه ينتهي دائمًا إلى تهنئة الذَّات (حينما يناقش المرء ثقافته) أو في العدائيَّة والعدوان (يناقش الآخر)؟ وهل تهمُّ الفروق الثَّقافيَّة والدِّينيَّة والعرقيَّة أكثر ممَّا تهمُّ الظُّروف الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والتَّاريخيَّة؟ ما هو دور المفكِّر؟ وأيُّ درجة من الأهميَّة ينبغي أن يعطي للوعي النَّقديّ المستقلّ، الوعي النَّقديّ الضِّدِّيّ؟)[1]

وعن كتابه (الاستشراق) تقول الكاتبة غادة كرمي، وهي أكاديميَّة فلسطينيَّة تقيم في بريطانيا: (بدت الفكرة الجوهريَّة الَّتي جاء بها هٰذا الكتاب، بسيطة ومعروفة للوهلة الأولى، كما لو كنَّا نعرفها قبل ذٰلك بردح طويل من الزَّمن، إذ أثارت تعريته لتراث البحث الأبويّ والكولونياليّ الَّذي انتهجه الغرب تجاه الشَّرق العداوة والإعجاب على حد سواء. ولٰكنَّ كتاب سعيد كان يملك في نظر العرب سمة أصيلة لم تكن تحتاج إلى الأسس الفكريَّة الَّتي أقامها لتأييد فرضيَّته؛ لأنَّها كانت تتقاطع في صداها مع وعيهم الجمعيّ، بتشويه سمعتهم، والتَّقليل من شأنهم على يد الغرب. وبالنِّسبة للفلسطينيّين، كان الإنجاز الحقيقيُّ الَّذي حقَّقه إدوارد سعيد، يتمثَّل في تحديد ما أسمّيه إرادة السَّلب الَّتي تقع في قلب تراث البحث الاستشراقيّ، فقد عمل الكُتَّاب الَّذين وصفوا شعوب الشَّرق على سلبهم، وليس ذٰلك من خلال طردهم بصورة حسّيَّة مادِّيَّة، كما حصل في فلسطين، وإنَّما من خلال المعرفة المنمَّقة والدَّقيقة. ولم تكن هٰذه الأفكار تتَّصل بعصر

[1] سعيد، إدوارد، الاستشراق، مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة، بيروت، الطَّبعة العربيَّة الثَّانية 1984م، ص 7- 8.

آخر، بل هي تتغلغل في المواقف والخطاب العدوانيَّين اللَّذين تتبنَّاهما أمريكا والغرب حاليًّا، تجاه العرب والإسلام..).[1]

وعن التَّأثير الملحوظ والدَّائم، لإصدارات إدوارد سعيد، والَّتي من بينها: (مسألة فلسطين) و(تغطية الإسلام) و (بعد السَّماء الأخيرة) و(سياسة الاقتلاع) و(السَّلام وفحواه السَّلبيُّ)، يقول الباحث رشيد الخالدي: (ما زالت هٰذه الإصدارات تُتَداول، ويعاد طباعتها؛ ممَّا يعدُّ شاهدًا على أهمِّيَّتها، وتوافقها مع الأحداث. أمَّا فيما يختصُّ بقضيَّة فلسطين، فعلينا أخذ عامل آخر في الاعتبار، وهو تأثير سعيد غير العاديِّ على الخطاب السِّياسي في الولايات المتَّحدة. وكان صوته الإعلاميُّ المصدر الرَّئيس، وربَّما الأوحد للتِّرياق المضادِّ للبلاهة المهيمنة على الوسائط الإعلاميَّة الرَّئيسة، لدى مناقشتها للقضيَّة الفلسطينيَّة. لقد أنشأ إدوارد سعيد فكرة الإنسانيَّة الأساسيَّة للشَّعب الفلسطينيِّ في عقول الجمهور الأمريكيِّ).[2]

كتاب إدوارد سعيد الَّذي يحمل عنوان (تغطية الإسلام) يقع في مئتين وسبع وأربعين صفحة، ويشتمل على ثلاثة فصول: الأوَّل بعنوان الإسلام بوصفه خبرًا إعلاميًّا، والفصل الثَّاني عن قصَّة إيران، والثَّالث عن المعرفة والقوَّة، وسياسة تأويل الإسلام. وفي مقدِّمته، يقول سعيد: (هٰذا الكتاب هو الثَّالث والأخير من سلسلة ثلاثيَّة، حاولت فيها معالجة العلاقة الحديثة القائمة بين عوالم الإسلام والعرب والشَّرق من جهة، وبين الغرب وفرنسا وبريطانيا، ولا سيَّما الولايات المتَّحدة، من الجهة الأخرى. و (تغطية الإسلام) موضوعه معاصر تمامًا، فهو يتناول ردود الفعل الغربيَّة، لا سيَّما الأمريكيَّة،

[1] الكرمل الجديد 2، مؤسَّسة الكرمل الثَّقافيَّة، رام الله، خريف 2011م، ص64.

[2] بوفيه، بول، الحقُّ يخاطب القوَّة، ترجمة د. فاطمة نصر، منشورات مجلَّة سطور، القاهرة، الطَّبعة العربيَّة الأولى 2001م، ص204-205 .

تجاه العالم الإسلامي، بوصفه موقعًا شديد الأهميَّة، منذ أوائل سبعينات القرن العشرين، مع أنَّه بحدِّ ذاته مصدر للمتاعب على نحو منفِّر وإشكاليٍّ إلى حدٍّ بعيد).[1]

مهمَّة النَّاقد ومسؤوليَّاته

ويرى إدوارد سعيد أنَّ دور النَّاقد يتمثَّل في المعارضة الإيجابيَّة، وعبَّر عن رأيه هٰذا في مقدِّمة كتابه (العالم، النَّصُّ، والنَّاقد) قائلًا: (إن كان لي أن أستعمل لفظًا مرافقًا للنَّقد بصورة دائمة ـ ليس كلفظ تعديليٍّ بل توكيديٍّ ـ فسيكون هٰذا اللَّفظ هو: تعارضيّ). وظلَّ سعيد يهتمُّ بالعلاقات بين الثَّقافة والسِّياسة بشكل مستمرٍّ ومثمر، خاصَّة على مستوى الدَّولة).[2]

والملاحظ أنَّ إدوارد سعيد مؤمن بوعي الفرد، لٰكن هٰذا الوعي الفرديُّ جرى خنقه بوساطة (كميَّات هائلة من المعلومات المنظَّمة والمحزومة، والَّتي تهدف أساسًا إلى توليد نوع من القبول وعدم المساءلة، والسَّلبيَّة الجمعيَّة. لقد بات كل شيء محزومًا ومغلَّفًا وجاهزًا للبيع. هٰذا هو معنى اقتصاد السُّوق الجديد الَّذي سوَّقته العولمة على العالم خفية، غير تاركة سوى حيّز صغير للتَّحدِّي الفرديّ والمساءلة. بينما المنظَّمات الضَّخمة، سواء كانت حكومات أو مؤسَّسات، تتبنَّى سياسات عمياء في كثير من المجالات متسبِّبة في حدوث دمار بيئيٍّ واسع ودمار جينيٍّ شديد الشُّمول، وموفِّرة للجماعات القويَّة إمكانية جني الأرباح، دون أيَّة مسؤوليَّة. ضمن هٰذا الإطار، فإنَّ دور المثقَّف هو أن يعارض، وعندما أكون معارضًا فإنَّ بوسعي أن أمحِّص وأن أحكم وأن أنتقد).[3]

---

[1] سعيد، إدوارد، تغطية الإسلام، دار نينوى للدراسات والنَّشر، دمشق, 2011م،ص5 .

[2] بوفيه، بول، الحقُّ يخاطب القوَّة، ترجمة الدُّكتورة فاطمة نصر، منشورات مجلَّة سطور، القاهرة، الطَّبعة العربيَّة الأولى،2001م، ص204 ـ 205.

[3] سعيد، إدوارد، الثَّقافة والمقاومة، ترجمة علاء الدِّين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، الطَّبعة الأولى باللُّغة العربيَّة، 2006م، ص 93 ـ 94.

وعن المعارف الَّتي حاول نقلها لطلبته طوال ثلاثين عامًا، وكيفيَّة غرس التَّفكير النَّقديّ في نفوسهم، يجيب سعيد: (نحن نعيش في عصر المعلومات الَّتي تتَّخذ شكل الحزم والسِّلع والَّتي يمثِّل الإعلام نموذجًا لها، بل حتَّى الشَّبكة المعلوماتيَّة. يمكنك أن تحصل على موضوعات مطبوعة والَّتي يبدو لي أنَّ العقل النَّقدي ملزم بإعادة استنطاقها ومساءلتها. واجب المعلِّم أن يعطي المعلومات والمعرفة، وأن يعرِّض الطُّلاب إلى أشياء لم يكونوا يعرفونها من قبل. هناك عدد هائل من الكتب والمؤلِّفين الَّذين يستحقُّون أن يعرفوا، والَّذين أحاول حثَّ النَّاس على قراءتهم. كما أنَّني أحاول أن أدرِّب النَّاس على كيفيَّة القراءة. أنا أعلِّم النَّاس كيف يقرؤون بشكل نقديّ، وهو أن يكون بوسعهم ليس فقط أن يروا الكتاب بما هو ببساطة، مجرَّد كتاب، ولٰكن أن يضعوه ضمن سياقه، أن يفهموا كيف تمَّ إنتاجه، وأن يفهموا أن لا شيء يحدث بالصُّدفة. إنَّه فعل اختبار، بل سلسلة من الاختبارات والإجراءات الَّتي يخضع لها كلٌّ من الكُتَّاب والمجتمعات. وأحاول أن أري طلَّابي كيف تمثِّل هٰذه الكتب أجزاءً من المفاهيم والمعلومات والمعرفة الَّتي يجب عليهم أن يهضموها ويتحدُّوها ويستوعبوها، وأن يقوموا أيضًا بتمحيصها على نحو نقديّ. النُّقطة الَّتي أرغب في أن يصل إليها طلَّابي هي أنَّ المعرفة والقراءة لا يتمُّ استنفادهما أبدًا. إنَّهما دائمًا في حالة استمراريَّة. وهما يحتاجان إلى مقدار من الاستنطاق لا حدَّ له، ومن الاستكشاف والتَّحدِّي).[1]

وما يلفت القارئ، أنَّ إدوارد سعيد الَّذي أمضى سنواته الطَّويلة، وهو يتعلَّم ويكتب باللُّغة الإنجليزيَّة، ويعيش خارج الوطن العربيّ، كان محبًّا للُّغة العربيَّة، وحريصًا على تعلُّمها، وله موقف إيجابيٌّ واضح، يقول سعيد: (إنَّ اللُّغة هي التَّعبير الثَّقافيُّ المركزيُّ عند العرب. وهي في الحقيقة وثيقة الصِّلة، بل إنَّها (لغة الله)، كما جاء في القرآن الكريم، والقرآن منزل، وهو قد نزل من الله مباشرة، وهو كلمات الله بذاتها دون

[1] ن.م.، ص 92 ـ 93.

واسطة.... إنَّ اللُّغة العربيَّة يساء تقديمها على نحو مريع، ويتمُّ النَّظر إليها بوصفها أوَّلًا وقبل كِّل شيء لغة مولعة بالجدل، وعلى أنَّها لغة عنيفة باعتبارها لغة الإسلام. لٰكنَّها في حقيقة الأمر تمثِّل بالنِّسبة لواحد مثلي يعرف العديد من اللُّغات، أكثر اللُّغات جمالًا على الإطلاق. إنَّها لغة جدُّ رشيقة ومتساوقة في بنائها ومنطقها)[1].

السِّيرة الذَّاتيَّة: خارج المكان.. مذكِّرات

يقع كتاب (خارج المكان) لمؤلّفه الدكتور إدوارد سعيد، في ثلاثمئة وتسع وخمسين صفحة من القطع الكبير، وقد صدر أصلًا باللُّغة الإنجليزيَّة عام ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين، ثمَّ صدرت الطَّبعة العربيَّة الأولى عام 2000م، عن منشورات دار الآداب للنَّشر والتَّوزيع في بيروت.

ويبدو أنَّ تجربة سعيد تتشابه على نحو ما، مع تجربة الرِّوائيِّ البولونيِّ جوزيف كونراد الَّذي كتب بغير لغته، تمامًا كما فعل إدوارد سعيد الَّذي عاش تجربة حياتيَّة متنوِّعة، ولم يعبِّر عنها بلغته العربيَّة الأمِّ، بل باللُّغة الإنجليزيَّة الَّتي تعلَّم بها منذ نعومة أظفاره.

في سيرته الذَّاتيَّة الَّتي حملت عنوان: (خارج المكان)، يكتب إدوارد سعيد عن جوانب كثيرة من شخصيَّته، مذ كان طفلًا صغيرًا، وطالبًا يافعًا، يحار من اسمه الَّذي يحمل التَّناقض الَّذي عاشه طوال حياته، فالاسم الأوَّل إنجليزيٌّ والثَّاني عربيٌّ، وكثيرًا ما أوقعه هٰذا الاسم في مواقف محرجة. يقول في مذكِّراته: (كان يلزمني قرابة خمسين سنة؛ لكي أعتاد على (إدوارد)، وأخفِّف من الحرج الَّذي يسبِّبه لي هٰذا الاسم الإنجليزيُّ الأخرق الَّذي وضع كالنِّير على عاتق سعيد اسم العائلة العربيِّ القحّ. وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجة بين اسمي الإنجليزيِّ المفخَّم وشريكه العربيِّ، كنت أتجاوز (إدوارد) وأؤكِّد على (سعيد)، تبعًا للظُّروف، وأحيانًا أفعل العكس، أو كنت أعمد إلى لفظ الاسمين معًا بسرعة فائقة، بحيث يختلط الأمر على السَّامع. والأمر الوحيد الَّذي لم

[1] ن.م.، ص 147 ـ 148.

أكن أطيقه، مع اضطراري إلى تحمُّله، هو ردود الفعل المتشكِّكة والمدمِّرة الَّتي كنت أتلقَّاها: ادوارد؟! سعيد؟!.[1]

وأثناء إقامة أسرة إدوارد في مصر، لم تنقطع زيارتها المتكرِّرة لفلسطين. بل إنَّهم كانوا يعودون، إلى بيتهم العامر في القدس. (يقع منزلنا العائليُّ في الطَّالبيَّة، وهو حيٌّ من القدس الغربيَّة قليل السُّكان، بناه وسكن فيه حصرًا فلسطينيُّون مسيحيُّون من أمثالنا. والمنزل كناية عن فيلَّا حجريَّة مهيبة من طبقتين، كثيرة الغرف، تُحدِق بها حديقة جميلة، نلعب فيها أنا وابنا عمِّي الأصغران وشقيقاتي. ويصعب الحديث عن جيرة فعليَّة، مع أنَّنا كنَّا نعرف جميع ساكني الحي الَّذي لم تكن معالمه قد تبلورت بعد. أمام المنزل أرض مستطيلة خالية، كنت ألعب فيها أو أركب دراجتي. ولم يكن لنا جيران مباشرون، مع أنَّك تلقى على مسافة خمسمئة ذراع تقريبًا صفًّا من الفيلَّات المشابهة يسكنها أصدقاء أبناء عمِّي. اليوم (بعد الاحتلال)، أضحت الأرض الخالية حديقة عامَّة، والمنطقة المجاورة للبيت حيًّا فخمًا يسكنه أغنياء اليهود).[2]

يكتب سعيد عن تجاربه الحياتيَّة في بلاد النَّفي والاغتراب، وليس في وطنه ومسقط رأسه، وحتَّى تلك المدرسة الَّتي كان يتلقَّى دروسه فيها طردته ونفته، فأوغل في البعد والرَّحيل، إلى أن وصل إلى إحدى المدن الأمريكيَّة مع والديه اللَّذين أودعاه في إحدى المدارس، وهو طفل لمَّا يتجاوز السَّادسة عشرة من عمره، ثمَّ قفلا عائدين إلى القاهرة، ليعيش حياة دراسيَّة مليئة بالوحشة والوحدة والاغتراب، والحنين إلى البيت والأسرة والأمِّ الرَّؤوم الَّتي كان يفتقدها كثيرًا في ليالي البرد والثُّلوج، ويستعيد قراءة رسائلها الَّتي

[1] سعيد، إدوارد، خارج المكان مذكِّرات، ترجمة فوَّاز طرابلسي، دار الآداب للنَّشر والتَّوزيع، بيروت، الطَّبعة العربيَّة الأولى، 2000م، ص25 ـ 26.

[2] ن.م.، ص46.

كانت تخفِّف عنه بعضًا من معاناة الغربة، ولٰكنَّها في الوقت ذاته، كانت تحثُّه على الصَّبر والثَّبات والجدِّيَّة في طلب العلم والمعرفة.

وفي مقدِّمته لمذكِّراته، يشير إدوارد سعيد إلى الأسباب الَّتي دعته؛ لتأليف هٰذا الكتاب القريب إلى روحه، ومنها: رغبته بالعودة إلى العالم العربيّ، الَّذي أغفله خلال سنوات التَّعليم والنُّضج الطَّويلة، يقول: (السَّبب الوحيد الَّذي مكَّنني من خوض غمار هٰذا المشروع هو أنَّني بعد سنوات من حياتي خارج العالم العربيّ، اتَّخذت قراري، بُعَيْدَ حرب 1967م، بأن أعود سياسيًّا إلى العالم العربيّ الَّذي كنت قد أغفلته خلال سنوات التَّعليم والنُّضج الطَّويلة تلك).

ومن الأسباب الَّتي دفعته لكتابة مذكِّراته: محاولة تجسير الهوَّة بين بيئته العربيَّة الأصليَّة، وعالم تربيته، واستعادة هُويَّته العربيَّة، على الرَّغم من المحاولات الحثيثة الَّتي بذلت؛ لإقناعه بالتَّخلِّي عنها، خلال فترة دراسته الطَّويلة. بالإضافة إلى إدراكه العميق لأهمِّيَّة تدوين ذكرياته ومشاهداته وحياته وخصوصًا بين عام 1935م وعام 1962م، وهو سجلٌّ شخصيٌّ غير رسميٍّ، عن تلك السَّنوات المضطربة الَّتي عاشتها منطقتنا العربيَّة، على خلفيَّة الحرب العالميَّة الثَّانية، وضياع فلسطين، وقيام دولة إسرائيل، وسقوط الملكيَّة في مصر، والسَّنوات النَّاصريَّة، وحرب عام 1967م، وانطلاقة حركة المقاومة الفلسطينيَّة، والحرب الأهليَّة اللُّبنانيَّة، واتِّفاقيَّة أوسلو.

مذكِّرات سعيد تفتح الآفاق أمام الحوار بين الثَّقافات، وتؤكِّد أنَّ تعليمه الأجنبيَّ، وثقافته الغربيَّة، لم تحولا دون اعتزازه بأصوله العربيَّة، ودفاعه عن العدالة والحقِّ الفلسطينيّ، ولا سيَّما حقّ العودة، فقد تعرَّض المؤلِّف سعيد لهجمات إعلاميَّة شعواء، من قبل بعض الكتَّاب والصَّحفيِّين الأمريكيِّين المغرضين، حال صدور مذكِّراته في أيلول عام 1999م، مدَّعين أنَّه ليس فلسطينيًّا، ولا يمتلك بيتًا في فلسطين.

وسعيد يوضح أنَّه كتب مذكِّراته، أثناء فترة مرضه وعلاجه في أيار 1994م، واستغرق تأليفه خمس سنوات، واعتبره سجلًّا حافلًا لعالم منسيٍّ، أراد أن يدوِّنه؛ حتَّى لا يندثر ويضيع.[1]

يبدأ إدوارد سعيد كتابه بالحديث عن ذكرياته الأسريَّة في فلسطين، قبل عام النَّكبة وبيته العامر بالقدس، وزياراته لمدن يافا وحيفا وطبريا والناصرة وعكَّا وصفد ورام الله. أبوه من مواليد القدس، وعمل في الولايات المتَّحدة، وحصل على الجنسيَّة الأمريكيَّة، واشتغل في التِّجارة، وحقَّق كسبًا ماليًّا جيِّدًا، ولم يبح لابنه بالكثير عن ماضيه. يقول في مذكِّراته: (أبي كان مزيجًا طاغيًا من القوَّة والسُّلطان، ومن الانضباط العقلانيِّ، والعواطف المكتومة، وقد أدركت لاحقًا أنَّ هذه جميعًا قد طبعت حياتي ببعض الآثار الإيجابيَّة، ولٰكنَّها لم تعفني من الكوابح والمعوِّقات. ومع تقدُّمي بالعمر، توصَّلت إلى تحقيق التَّوازن بينها). وأمُّه من سكان النَّاصرة، يقول عنها: (المؤكَّد أنَّ أمِّي كانت الرَّفيق الأقرب إليَّ، والأكثر حميميَّة خلال ربع قرن من حياتي. وإنِّي أشعر أنِّي مطبوع بالعديد من وجهات نظرها، وعاداتها الَّتي لا تزال تسير حياتي: من قلق، إلى أرق مزمن، وعدم استقرار، إلى مخزون لا ينضب من الحيويَّة الذِّهنيَّة والجسديَّة، واهتمام عميق بالموسيقى، واللُّغة وبجماليَّات المظهر والأسلوب والشَّكل، وميل إلى الحياة الاجتماعيَّة بتيَّاراتها وملذَّاتها وما تحمله من طاقة على السَّعادة والحزن). وكانت له أربع شقيقات. غادرت أسرته إلى مصر، وعاشت سنوات طويلة هناك، وبعد نكبة عام 1948م، هجِّرت عائلته الكبيرة، خارج فلسطين.

ويلحظ القارئ لكتاب خارج المكان، أنَّ كاتبه كان صريحًا، ويعبِّر عن أحاسيسه، دون مواربة، وأنَّه يذكر بصدق مظاهر ضعفه، والسِّمات الَّتي يتَّصف بها، أو تلك الَّتي تميِّز والديه. يقول في مذكِّراته عن والده: (كان له ظهر ضخم، وصدر برميليٌّ نافر، يوحي

[1] ن.م.، ص9.

بالعصيان، رغم قصر قامته، ويوحي بالثِّقة الطَّاغية، بالنِّسبة إليَّ على الأقلِّ. على أنَّ أبرز صفاته الجسديَّة مشيته المتيبِّسة كقضيب، والمنتصبة على نحو يكاد أن يكون كاريكاتوريًّا). ويواصل رسم صورة والده، ويقارنها مع شخصيَّته المناقضة بقوله: (إلى هٰذا، وبالمقارنة مع جبني وخجلي الانكماشيَّين، كان يتمتَّع بنوع من التِّيه يناقضني تناقضًا صارخًا، إذ يبدو أنَّه لا يخشى اقتحام أيِّ مكان، أو الإقدام على أيِّ فعل، وهما أكثر ما أخشاه. كنت أتحاشى نظر النَّاس لشدَّة تحسُّسي لنواقصي الجسمانيَّة اللَّا متناهية، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأنَّها جميعًا انعكاس لنواقصي الجوَّانيَّة. وكان أصعب الصِّعاب عندي أن ينظر إليَّ النَّاس، وأن أقابل نظراتهم بمثلها.[1]

وعبَّر سعيد في مذكِّراته، عن انتقاده لأسلوب التَّربية والتَّدريس في المدارس الَّتي تعلَّم فيها، أثناء وجوده في القاهرة، ويصف انطباعاته عن المدارس الإنجليزيَّة، بقوله: (اتَّسمت حياتنا في فكتوريا كولدج بتشوُّه كبير لم أدركه حينها. كانت النَّظرة السَّائدة إلى التَّلامذة أنَّهم أعضاء، تمَّموا دفع اشتراكاتهم، في نخبة كولونياليَّة مزعومة يجري تعليمها فنونًا إمبرياليَّة بريطانيَّة قضت نحبها، مع أنَّنا لم ندرك ذٰلك تمامًا. علَّمونا عن حياة إنكلترا وآدابها، وعن النِّظام الملكيِّ والبرلمان، عن الهند وإفريقيا، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر، أو في أيِّ مكان آخر. ولمَّا كان الانتماء العربيُّ وتكلم اللُّغة العربيَّة يعدَّان بمثابة جنحة يعاقب عليها القانون في فكتوريا كولدج، فلا عجب أن لا نتلقَّى أبدًا التَّعليم المناسب عن لغتنا وتاريخنا وثقافتنا وجغرافيَّة بلادنا. وكانوا يمتحنوننا بصفتنا تلامذة إنكليزًا، نجرُّ أذيالنا متخلِّفين؛ سعيًا لتحقيق هدف مبهم، يستحيل تحقيقه أصلًا..... لقد بتنا ندرك أنَّنا جميعًا دونيُّون

[1] ن.م.، ص85.

نواجه قوَّة كولونياليَّة جريحة وخطرة بل وقابلة لأن تؤذينا، ونحن مجبرون على تعلُّم لغتها واستيعاب ثقافتها؛ لكونها هي الثَّقافة السَّائدة في مصر).[1]

وعلى متن ثلاثمئة وتسع وخمسين صفحة، يحكي إدوارد سعيد حكاياته، مع أهله وأقربائه ومعارفه وزملائه، ومعلِّميه، ويقصُّ ذكرياته، أيَّام طفولته، وشبابه المبكِّر، ودراسته في القاهرة وأمريكا، وحصوله على الدُّكتوراة في الأدب المقارن، وبدايات تعلُّقه بالقراءة والدِّراسة والبحث، وكتابة الدِّراسات والمقالات والكتب الَّتي لفتت الأنظار إليه.

وختامًا، فإنَّ قارئ كتاب (خارج المكان) يستطيع أن يلحظ مجموعة من السِّمات الفنِّيَّة الَّتي اتَّصف بها، ومنها:

- ورود عنوان الكتاب (خارج المكان) في عدد من الصَّفحات، فقد وجد الكاتب نفسه خارج الوطن، وخارج الكلِّيَّة والمدرسة، والبيت والأسرة، وحتَّى حينما أراد أن يستعيد ذكريات دراسته في القاهرة، والغرفة الَّتي كان يتعلَّم فيها، وآخر مقعد جلس عليه، قبل طرده من الكلِّيَّة، جاءت مديرة المدرسة بدورها، وطردته خارج المكان. وعندما كتب مذكِّراته أيضًا هٰذه، لم يكن في غالب الأحيان متواجدًا في بيته، وإنَّما في بيوت أصدقائه أو الفنادق، أو المشفى الَّذي كان يُعالج فيه.
- استخدام ضمير المتكلِّم، في السَّرد، الأمر الَّذي مكَّن إدوارد سعيد من التَّعبير عن أحاسيسه الدَّافئة بسلاسة وتلقائيَّة.
- ورود أسماء العديد من المدن الفلسطينيَّة الَّتي جرت فيها أحداث ومواقف عايشها الكاتب عن قرب في طفولته، مثل: القدس، رام الله، يافا، حيفا، صفد، طبريَّا..
- عمق انتمائه لأمَّته العربيَّة، ولوطنه فلسطين، وحقوق شعبه.

[1] ن.م.، ص 233.

- الصَّراحة والصِّدق، والتَّركيز على مظاهر ضعفه الإنسانيّ، وقوَّته الكامنة الَّتي كان يستشعرها في أعماق نفسه منذ طفولته، وهٰذا ما بدا واضحًا في عبقريَّته الَّتي تحقَّقت له في كبره.
- نقل تجربة حياة تستحقُّ الرِّواية والتَّوثيق؛ لتستفيد منها الأجيال اللَّاحقة.
- الشَّخصيَّات الواردة في المذكِّرات واقعيَّة وحقيقيَّة. الوالدان الأخوات المدرِّسون الأصدقاء...
- الزَّمان يمتدُّ منذ بداية القرن العشرين حتَّى العام 1999م، والأمكنة الَّتي جرت فيها الأحداث معروفة. فلسطين، ومصر، ولبنان، والولايات المتَّحدة.
- كثرة الأسماء الغربيَّة والأجنبيَّة الواردة في الكتاب، سواء تلك الَّتي التقى بها إدوارد سعيد، أو تلك الأسماء الفكريَّة والثَّقافيَّة الَّتي قرأ لها؛ بسبب إقامته الطَّويلة والمتواصلة خارج الوطن.

إجمال

تناولت في بحثي هٰذا الأديب والمفكِّر الفلسطينيَّ والعالميَّ الدُّكتور إدوارد سعيد، حيث بدأت بالحديث عن ميلاده وطفولته، وحياته وسيرته، والمؤثِّرات الفكريَّة الأولى الَّتي تأثَّر بها، ودراسته وتجاربه في مصر وأمريكا، واستعرضت كتبه المنشورة، وإنتاجه الثَّقافي في مراحله المختلفة، وقدَّمت رؤيته لمهمَّة النَّاقد ومسؤوليَّاته، وأفردت حيِّزًا لكتابه: (خارج المكان) وقدَّمت قراءة نقديَّة له، وأبرزت أهمَّ السِّمات الفنِّيَّة الَّتي اتَّسم بها هٰذا الكتاب المهمُّ الَّذي يندرج في إطار فنِّ السِّيرة الذَّاتيَّة، آملًا أن أكون قد أسهمت في تسليط الأضواء على هٰذا الأديب والمفكِّر الَّذي يستحقُّ التَّقدير والاحترام.

قائمة بأسماء المراجع:

1. الجيُّوسي، د. سلمى، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، الطَّبعة الأولى 1997.
2. الكرمل الجديد 2، مؤسَّسة الكرمل الثَّقافيَّة، رام الله، خريف 2011م.
3. الموسوعة العربيَّة العالميَّة 12، مؤسَّسة أعمال الموسوعة للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، المملكة العربيَّة السُّعودية، 1999م.
4. بوفيه، بول، الحقُّ يخاطب القوَّة، ترجمة د. فاطمة نصر، منشورات مجلَّة سطور، القاهرة، الطَّبعة العربيَّة الأولى 2001م.
5. سعيد، إدوارد، الاستشراق، مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة، بيروت، الطَّبعة العربيَّة الثَّانية 1984م.
6. سعيد، إدوارد، الآلهة الَّتي تفشل دائمًا، ترجمة حسام الدِّين خضور، التَّكوين للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، الطَّبعة الأولى باللُّغة العربيَّة عام 2003م.
7. سعيد، إدوارد، الثَّقافة والمقاومة، ترجمة علاء الدِّين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، الطَّبعة الأولى باللُّغة العربيَّة، 2006م.
8. سعيد، إدوارد، تأمُّلات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، الطَّبعة الأولى باللُّغة العربيَّة عام 2004م.
9. سعيد، إدوارد، تغطية الإسلام، دار نينوى للدِّراسات والنَّشر والتَّوزيع، دمشق،2011م.
10. سعيد، إدوارد، خارج المكان مذكِّرات، ترجمة فوَّاز طرابلسي، دار الآداب للنَّشر والتَّوزيع، بيروت، الطَّبعة العربيَّة الأولى،2000م.
11. فصليَّة الكرمل عدد 78، مؤسَّسة الكرمل الثَّقافيَّة مركز خليل السَّكاكيني الثَّقافي، رام الله، شتاء 2004م.